المحاضرة08: الرمز في النص الشعري المعاصر.

تمهيد:

إن الأدب المعاصر نوع من الكشف والارتياد، بمقدار ما هو نوع من المعاناة المرهقة والجهد المضني، إنه بالنسبة للمبدع مغامرة يحاول من خلالها أن يعيد اكتشاف الوجود وأن يكسبه معنى جديدا، غير معناه العادي المبتذل ووسيلته إلى ذلك هي النفاذ إلى صميم هذا الوجود لاكتشاف تلك العلاقات الخفية التي تربط بين عناصره ومكوناته المختلفة، حتى تلك التي تبدو في الظاهر على أكبر قدر من التباعد والتنافر، وهو في سبيل وصوله إلى هذه العلاقات الخفية بين عناصر الوجود كثيرا ما يتجاوز العلاقات الظاهرة المحسوسة والمنطقية بين هذه العناصر تلك العلاقات التي لا تلتقط سواها النظرة العادية التي تقف عند ظواهر الأشياء.

أولا - استدعاء الرموز.

لجأ الشاعر المعاصر إلى تقنيات فنية مختلفة للتعبير عن تعدد الأبعاد كالرمز التراثي والمفارقة التصويرية، بما فيهما من تصوير للحوار والصراع بين الأبعاد المختلفة في رؤية الشاعر، فالرمز التراثي والرمز عموما يعكس التفاعل والحوار بين الدلالة التراثية أو الواقعية للرمز وبين دلالته الرمزية[i]، ولكن التأمل في طبيعة الرموز التي يستخدمها الشعراء المعاصرون وفي طريقة استخدامهم لها يدعو دعوة ملحة إلى دراسة الظاهرة والاهتمام بها.

إن الشاعر لا يخلق صوره من عدم، وإنما يختار من الإمكانات المتاحة في اللغة، ويستعين بمدركاته الحسية المختزنة، ويقيم تفاعلا من نوع خاص، ليشكل نظاما لغويا قادرا على إبراز الدلالات التي تحتويها التجربة الشعورية والفنية[ii] ذلك أن « اللغة في أصلها رموز أصطلح عليها لتثير في النفس معاني وعواطف »[iii].

والرمز بما يحققه من تكثيف لغوي ومن دلالات متعددة يمكّن من التعبير عن عالمي الشاعر الظاهر والباطن معا، وعن طريقه يزيح الشاعر من طريق الحياة الإنسانية ماران عليها من صلف التحديث الصناعي وجمود الآلية التي كونت طبقات متراكمة حالت دون القدرة على الاستبطان والتخيل[iv]، والمبدع إذ يلجأ إليه، إنما بتوجيه من تجربته الشعورية المضطربة التي لا يمكن التعبير عنها إلا بالصورة الرمزية، فهي « ذات إيحاء جم، ومظهر إيجاز واضح.»[v]

ولقد اختلف مفهوم الرمز باختلاف الباحثين ومجالات اشتغالهم مما أدى إلى تعدد استخداماته، فهو يظهر « كمصطلح في المنطق والرياضيات وفي نظرية المعرفة، وعلم الدلالة، وعلم الإشارات، كما أن له تاريخا طويلا في عوالم اللاهوت (الرمز أحد مرادفات العقيدة) والطقوس والفنون الجميلة والشعر »[vi]، والرمز مقابل للكلمة الفرنسية (symbole)[vii] المشتقة من الكلمة الإغريقية (sumboleen) بمعنى علامة (signe) وهو علاقة تمثيلية لكائن حي أو شيء يمثل شيئا مجردا.

أما بالنسبة للرمزية فهي مصدر عربي مقابل للمصطلح الفرنسي (symbolisme)الدال على « مذهب أدبي نشأ في فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، نما في ظل الفلسفة المثالية الألمانية، وساعدته في ذلك مدرسة التحليل النفسي والثورة البرجوازية، والترجمات الفرنسية عن إدغار آلان بو (Edgar Allam

poe) التي قام بها شارل بودلير (Charles Pierre – Baudelaire) ولذلك كانت الرمزية ثورة على كل ما سبقها من مذاهب أدبية.»[viii]

ويعد أرسطو (Aristo) من أقدم الفلاسفة الذين خاضوا في الرمز، حيث عرفه تعريفا لغويا بقوله إن «الكلمات المنطوقة رموز لحالات النفس، والكلمات المكتوبة رموز لكلمات منطوقة »[ix] فالكلمات عنده رموز لمعاني الأشياء سواء أكانت مكتوبة أم منطوقة فهي رموز لمعاني مجر دة في الذهن، ولا يكاد يختلف مفهوم الرمز عند من جاء بعد أرسطو من فلاسفة وباحثين في ماهيته، وإن بقى مرتبطا بالمجال الذي ينحصر فيه وبحسب تعدد العلوم التي احتوته وكذلك بحسب الخلفية المعرفية لدى الباحث.

ففي مجال الأدب يعد غوته(Goethe) أول من نظر إلى الرمز نظرة أدبية حيث اعتبره « امتزاجا للذات مع الموضوع الخارجي، وحين يمتزج الذاتي مع الموضوعي يشرف الرمز الذي يمثل علاقة الإنسان بالشيء أو علاقة الفنان بالطبيعة »[x]، فالرمز عنده امتزاج الداخل من الخارج وامتزاج الفنان بالطبيعة، أو الموضوع الداخلي مع الموضوع المادي، ولقد فتح هذا المفهوم المجال أمام باحثين آخرين للبحث في جوهر الرمز الأدبي بما في ذلك الفلاسفة.

حيث إن كانط (Kant) وهو المعروف بفلسفته للوجود كله بما في ذلك الأدب، يعتبر الرمز علاقة تجمع الذات بالموضوع الخارجي، إلا أنه يحدد طبيعة هذه العلاقة إذ الرمز عنده مستقل بذاته عما أخذ عنه، فبمجرد انتزاعه من الطبيعة يكتسب طبيعة جديدة لها ميزتها وخصائصها وكينونتها، وهو بهذه الصيغة الجديدة معنى مجرد لا تربطه بما أخذ منه إلا النتائج، التي لا تشترط أبدا التشابه الحسي بين الرموز وما يرمز إليه فالعبرة بالواقع المشترك والمتشابه[xi] إن فلسفة كانط هذه تفسح مجالا لعالم الأفكار و « تصرح بتعذر معرفة العالم الخارجي عن غير طريق صوره المعكوسة فيه »[xii].

ويعتبر كوليردج (Coleridge) المشهور بنظريته الشاملة في الخيال، أنه – الخيال- وسيلة للرمز وأداة لتحققه ففي « الرمز يكشف الفرد عن النوع، ويكشف النوع عن الجنس، ويكشف الجنس عن الكوني، وفوق هذا كله يكشف الفاني عن الأبدي الباقي »[xiii]، بمعنى أن العمل الفني عنده رمز يتوسط بين عالم الطبيعة وعالم الفكر، ففعل التقدير الجمالي كفعل الخلق الفني، إن هو إلا إظهار الخبرة في رمز عن طريق قوة الخيال.

والرمز عنده يقف بمواجهة المفهوم، ولكن عن طريق التفاعل بين الإثنين يصل العقل البشري إلى أبعد انجازاته، ويجتهد العقل للتعبير عن مغزى خبرته بالذات في أشكال رمزية، لأن التعبير على شكل مفهوم غير كاف غالبا.[xiv] أي أن الرمز عنده مقترن بشرطين "الخيال و العقل " حيث جعل وظيفة الفنان تجسيد خبرته في رموز مستخدما ما يجد في عالم الطبيعة ليعبر عن رؤياه في الأشياء.

لكن الشاعر العربي المعاصر في استخدامه للرمز ينحو منحى آخر غير الاتجاهات السابقة فهو لا يفكر بالعقلية الفلسفية ولا الوجودية، فعندما يستخدم كلمات مثل " البحر، الريح، القمر، النجم ... " فإنه يستخدم عندئذ كلمات ذات دلالة رمزية، وربما كانت بعض هذه الدلالات مشتركة بين الناس، ولكن استخدامه لها لن

يكون له قوة التأثير الشعري ما لم يحسن استغلال العلاقات أو الأبعاد القديمة لهذا الرمز، وما لم يضف إلى ذلك أبعاد جديدة هي من كشفه الخاص.

والرمز الشعري مرتبط كل الارتباط بالتجربة الشعورية التي يعاينها الشاعر، والتي تمنح الأشياء مغزى خاصا، وليس هناك شيء ما هو في ذاته أهم من أي شيء آخر إلا بالنسبة للنفس وهي في بؤرة التجربة، فعندئذ تتقارب أهمية الأشياء وقيمتها؛ ذلك أن التجربة هي التي تمنح الأشياء أهمية خاصة.[xv] أي أن الرمز ببساطة « يستلزم مستويين؛ مستوى الأشياء الحسية أو الصور الحسية التي تؤخذ قالبا للرمز، ومستوى الحالات المعنوية المرموز إليها وحين يندمج المستويان نحصل على رمز.»[xvi]

ومن هنا تبرز أمام الشاعر إمكانية عظيمة الدلالة، هي أنه من حقه دائما أن يستخدم أي موضوع أو موقف أو حادثة استخداما رمزيا وإن لم تكن قد استخدمت من قبل هذا الاستخدام، ومهما تكن الرموز التي يستخدمها الشاعر ضاربة بجذورها في التاريخ، ومرتبطة عبر هذا التاريخ بالتجارب الأساسية النمطية، فإنها حين يستخدمها الشاعر لابد أن تكون مرتبطة بالحاضر، وأن تكون قوتها التعبيرية نابعة منها، فالقيمة كامنة في لحظة التجربة ذاتها، وليست راجعة لا إلى صفة الديمومة التي لهذه الرموز ولا إلى قدمها.

ولقد اختلف الباحثون حول تقسيم مستويات الرمز بين عام وخاص وجزئي وكلي، ونشيط وحركي وشفاف وكثيف، بل إن هناك من يخلط بين الأنواع والمستويات، ولكنهم يستقرون في النهاية عند أهم أنواعهبالاستناد إلى كثرة ما ورد في شعر الشعراء المعاصرين ما بين طبيعي وأسطوري وديني وتراثي وقصصي وغيرها وهي الأنواع التي يكثر استخدامها في النص الشعري العربي المعاصر، وتتمثل أساسا في:

1- الرمز الطبيعي: تختلف الطبيعة في المجال الأدبي الفني، إذ يغرق الشاعر فيها ويتعايش مع عواصفها ورعودها وزلازلها، فهو ابن الطبيعة وجزء منها، وإن كان يسكنها ويجاورها، فما يمنعه أن يأخذ منها؟ فالشاعر لا ينظر إلى الطبيعة على أنها شيء مادي منفصل عنه وإنما يراها امتدادا لكيانه تتغذى من تجربته، وهو إذ يستمد رموزه من الطبيعة يخلع عليها من عواطفه ويصبغ عليها من ذاته ما يجعلها تنفث إشعاعات وتموجات تضج بالإيحاءات، يلجأ إلى الطبيعة يرمز بمظاهرها بل ويستكين إلى كائناتها، والشعراء المعاصرون أكثر وأحسن استغلالا لرموز الطبيعة لما في العالم المعاصر من فوضى واستطارة للحضارة.

مثل الكهف الذي تداوله الشعراء المعاصرون على اختلاف في دلالته، فالكهف عند أحمد عبد المعطي حجازي يتصل بالواقع وانكسار المجتمع، يقول في موعد الكهف:[xvii]

أسأل نفسي، عندما أصحو على ظلي

وحيدا هامدا

ملقى بأرض الكهف، مكسورا على أصل الجدار

هل انتهى زماننا

كنت أظنه ابتدا.

2- الرمز الديني: تباينت نظرة الشعراء إلى الدين الإسلامي منه والمسيحي، فمنهم من لجأ إلى القرآن وإلى قصصه وملامح الأنبياء فيه، يستلهمونها رموزا خالدة، يسقطها على الحاضر أو يتقمصها، لا يجد في ذلك بأسا أو حرجا فالقرآن خالد وصالح لكل الأزمنة والأمكنة، فكان محمد، وأيوب، وعيسى، وموسى، وغار حرا ء، وقصة يوسف وأهل الكهف، وذي القرنين، وعجل السامري، وحادثة الإفك... وغيرها، متكأ وملجأ بعض الشعراء في إبداعاتهم وتشكيلاتهم التهويمية –الرمزية-، في حين نجد من يوجه قلمه شطر الإنجيل، يستوحي من موضوعاته المحرفة غالبا والمليئة بحوادث الحب والصلب والجنس والخيانة مادة ثرية تزيد قصائده دسامة وتشويقا.

وإذا كان الصنف الأول تعامل بحذر مع الموروث الديني الإسلامي، فإن الثاني أطلق لنفسه العنان، وتعامل مع رمز المسيح - عليه السلام- مثلا بحرية أكبر إزاء شخصيته، وحياته ومن ثم «أطلقوا لأنفسهم العنان في تأويل ملامحها وانتحالها لأنفسهم، ومعظم ملامح السيد المسيح في شعرنا المعاصر مستمدة من الموروث المسيحي وخصوصا "الصلب" و"الفداء" و"الحياة من خلال الموت" وقد أفتتن شاعرنا المعاصر بتصوير نفسه مسيحيا على الصليب».[xviii] حيث يتخذ رمز المسيح بعدا حضاريا، ويتلبس دلالات عميقة في النص الشعري العربي المعاصر، نحو ما نقرأ في "ليالي بيروت" لخليل حاوي:[xix]

في ليالي الضيق والحرمان
والريح المدوي في متاهات الدروب
من يقوينا على حمل الصليب
من يقينا سأم الصحراء
من يطرد عنا ذلك الوحش الرهيب.

إن دلالة رمز المسيح –عليه السلام- في هذه المقطوعة هو «الهوية المغلوبة والمصير الدامي الذي ربما لا ينتظر بعثا ورجوعا مثلما يستثر الأنا جيل بعودته ويصبح الصلب المصير المأساوي لهذه الأمة»[xx]

3- الرمز التراثي: إذا كان الشاعر المعاصر يستمد عناصر رموزه أساسا من الشخوص الأسطورية، فإنه في أحيان كثيرة يستمد هذه الرموز من التراث بمصادره المتعددة، باعتبار هذا التراث منبع طاقات إيحائية لا ينفد له عطاء، فعناصره ومعطياته لها من القدرة على الإيحاء بمشاعر وأحاسيس لا تنفد، وعلى التأثير في نفوس الجماهير ووجداناتهم ما ليس لأية معطيات أخرى يستغلها الشاعر، حيث تعيش هذه المعطيات التراثية في وجدان الناس وأعماقهم تحف بها هالة من القداسة والإكبار لأنها تمثل الجذور الأساسية لتكوينهم الفكري والوجداني والنفسي.

ومن ثم فإن الشاعر حين يتوسل إلى إيصال الأبعاد النفسية والشعورية لرؤيته الإبداعية عبر جسور من معطيات هذا التراث، فإنه يتوسل إلى ذلك بأكثر الوسائل فعالية وقدرة على التأثير والنفاذ، هذا بالإضافة إلى أن استخدام الرموز التراثية يضفي على العمل الشعري عراقة وأصالة، ويمثل نوعا من امتداد الماضي في الحاضر وتغلغل الحاضر بجذوره في تربة الماضي الخصبة المعطاء، كما أنه يمنح الرؤية الإبداعية نوعا من الشمول والكلية يجعلها

تتخطى حدود الزمان والمكان، ويتلاحم في إطارها الماضي مع الحاضر.[xxi] و يأتي رمز المعري في شعر صلاح عبد الصبور منسجما مع قضايا شعره التأملية، يقول:[xxii]

وأعلم أنكم كرماء
وأنكم ستغتفرون لي التقصير- ما كنت أبا الطيب
ولم أوهب كهذا الفارس العملاق أن أقتنص المعنى
ولست أنا الحكيم رهين محبسه بلا أرب
لأني لو قعدت بمحبسي لقضيت من شعب
ولست أنا الأمير يعيش في قصر يحضن النيل
يناغيه مغنيه
ولكن تعذبت لكي أعرف معنى الحرف.

4- الرمز الأسطوري: اتخذ الشاعر المعاصر من الأسطورة أداة تضمين داخل نصوصه، سواء أكان هذا التضمين متخذا شكل الرمز أم شكل الصور الاستعارية أم حتى شكل الإشارة البسيطة العابرة، حيث إن «الأسطورة منحت المؤلفين مادة مكنتهم من صياغتها صياغة في إطار من الرمز، وكان هذا الرمز هو ما يحتاجه هؤلاء المؤلفون، إذ أن الظروف السياسية لم تكن تعطي المؤلف حرية التعبير عن نفسه، فكان اللجوء إلى الرمز خير الطرق وأسلمها للتعبير عن رأيه وتقديم أفكاره، وكان الرمز في الأسطورة جاهزا.»[xxiii]، ويعد يوسف الخال من أكثر الشعراء المعاصرين استخداما للرمز الأسطوري في أشعارهم، كما نقرأ ذلك في قصيدته "الدعاء".[xxiv]

وقبل مانهم بالرحيل نذبح الخراف
واحدا لعشتروت، واحدا لأدونيس
واحدا لبعل...

يتضح في المقطوعة تتابع الشخوص الرمزية الأسطورية "عشتروت، أدونيس البعل" بما يخدم تجربته الشعرية والموقف الشعوري الذي يعبر عنه.